محمد محفوظ

المفكرون العرب.. والسيرة الفكرية

يحاول الدكتور علي حرب في كتابه (خطاب الهوية – سيرة فكرية) . أن يوضح لقرائه جملة الأطوار النفسية والفكرية والفلسفية ، التي مر بها في حياته العامة والعلمية .

وكتابه المذكور أعلاه ، عبارة عن مسيرة فكرة ، نضجت وتطورت ، واتخذت أبعاداً عديدة ، وخيارات مختلفة ، وهي ما زالت سيرة مفتوحة على كل الخيارات والقناعات والأفكار الكبرى .

لذلك يقول (حرب) في سيرته : وأيقن أن هويته هي كل هذا الاختلاف والتعدد ، وكل ذلك التعارض والانفصام ، وإنها أضيق ما تكون من وجه وأوسع ما تكون من وجه آخر . فهي تضيق في حدها الأقصى لتقتصر على ما يخصه وحده وينحاز به عما سواه .

وإذ ذاك ينفرد بوجوده الخاص ، ويتماهى مع حقيقته الذاتية فيبرأ من كل نسبة ، ويعرى عن كل إضافة ، غير مدرك سوى أحديته ، وأنه هو لا يشبه شيء .

ولكن هويته قد تتسع في حدها الآخر إلى درجة الذوبان والتلاشي في هذا العالم .

وتظهر هذه السيرة الفكرية ، بمختلف أطوارها وأنماطها ، أن الانحباس في نمط فكري ، بلا قناعة عقلية وعلمية ثابتة ، يؤدي إلى ممارسة الأعمال النقيضة لها على مستوى السلوك ، لأنه لم يتسرب إلى دواخل النفس والوجدان .

كما أن القناعات الفكرية ، ليست خيارات نهائية ، ليس بمقدور الإنسان تطويرها وتغييرها . وإنما هي مشروع مفتوح على الإضافة

والتطوير والتغيير . وبهذا يصبح المثقف أو المفكر ، إمكانية فعلية ودائمة للمراجعة والمفاكرة ، والبحث عن الأفكار الكبرى ، والتعامل معها وفق منهج نقدي ، ينضجها على مستوى الذات ، ويحدد معايبها ونواقصها ، ويؤهل ذات المفكر إلى الإضافة النوعية والتجاوز المعرفي .

من هنا تنبع ضرورة اهتمام المفكرين العرب ، بتدوين سيرهم الفكرية ، وأطوار نموهم العلمي والثقافي ، حتى يتسنى للقارئ العربي ، معرفة منطق التفكير لدى كل مفكر ، والتاريخ الفكري الذي مر به هذا المفكر ، والصعوبات الفكرية التي واجهته في مسيـــــــــــــــرته . والطرائق والأساليب التي اتبعها لزيادة وعيه المعرفي ومراكمة جهده الفكري والثقافي .

ومن الأهمية بمكان في هذا الإطار ، أن نفرق بين المذكرات اليومية ، التي غالباً ما توضع كاتبها وكأنه بطل على الدوام ، وأن آراءه الفريدة سبقت عصره ، وأنها كانت ملازمة لشخصه منذ بداية تكوينه العلمي ، وبين السيرة الفكرية ، التي تجعل المفكر كتاباً مفتوحاً بأطواره الفكرية وقلقه المعرفي ، وأخطائه السياسية ، وتنقلاته المعرفية .

لهذا فإن المطلوب ، ليس أن يكتب كل مفكر مذكراته ، ويدون لحظاته اليومية ، وإنما أن يكتب سيرته الفكرية وأطوارها ومراحلها .

فالسيرة الفكرية بكل صعوباتها ومحطاتها وإخفاقاتها واكتشافاتها ، هي المطلوبة وهي التي تساهم في مراكمة الوعي الفكري العربي ، وتجعل الأجيال الطالعة تستفيد بعمق وبوعي من تجارب وخبرات الأجيال السابقة .

وما نطالب به ليس جديداً ، فقد كتب عميد الأدب العربي (الأيام) كسيرة فكرية ويومية . والدكتور حسن حنفي في (محاولة مبدئية لسيرة ذاتية) ، وهشام شرابي ومحمد عابد الجابري في (حفريات الذاكرة) ، ولكن يؤخذ على بعض هذه الأعمال ، أنها أقرب إلى المذكرات ، منها إلى السيرة الفكرية .

وهناك جملة من المسوغات التي تـــــــــــدفع بهذا الاتجاه ، وتجعل العناية بالسيرة الفكرية ، ضرورة معرفية وثقافية ، أهمها ما يلي :

أن كتابة السيرة الفكرية ، هو جزء من عملية توثيق المرحلة الزمنية ، من زاوية فكرية – ثقافية .

ونحن في العالم العربي ، أحوج ما نكون إلى عملية التوثيق الفكري والرؤية الثقافية ، إلى جملة الأحداث الجسام التي مر بها عالمنا العربي .

وتتعمق هذه الحاجة ، حينما تكون عملية التوثيق أو صناعة الرؤية الثقافية على منعطفات وأحداث تاريخنا القريب ، من قبل المفكرين العرب ، الذين يعدون جزءا أساسيا من قيادات الرأي في العالم العربي .

أن قناعات المفكر ، وآراءه الثقافية والفكرية ، ليست ثابتة أو جامدة ، وإنما هي قابلة للتحول والتطور والتغيير ، وأن كتابة السيرة الفكرية وبشكل موضوعي ، تساهم بشكل كبير في تجديد قناعات المفكر الثقافية والفكرية . ولا يجعل قراء هذا المفكر ومتابعيه ينظرون إلى آرائه وأفكاره ، نظرة نمطية ثابتة .

وبهذا يكون التعامل مع المفكرين والمثقفين ، تعاملاً تفاعلياً ، يبتعد عن كل أشكال اليباس والنمطية ، ويؤسس لنمط من العلاقات قائم على الحوار والمفاكرة والتفاعل .

إن هناك علاقة عميقة ، تربط الإنتاج الفكري والثقافي لأي مفكر ، والواقع الذي يعيشه محيطه الثقافي والاجتماعي والسياسي .

لذلك من الصعب الفصل بين ما يكتبه المفكر ، وما يتطلبه محيطه . إلا أن النص الفكري الذي ينتجه المفكر ، ليس صريحاً في بيان خلفية المحيط وتداعياته وتأثيراته .

وكتابة السيرة الفكرية ، تساهم بشكل قوي في بيان الخلفية الثقافية والاجتماعية والسياسية ، التي أسهمت بشكل أو بآخر في القناعات التي بثها في نصوصه الثقافية والأدبية .

لهذا كله نرى ضرورة أن يعتني المفكرون العرب ، بتدوين وكتابة مسيرتهم وسيرتهم الفكرية والثقافة بتحولاتها وانعطافاتها وصعوباتها وأسرارها ، وعوامل التأثير الكبرى في مسارها .

لأن هذا التدوين ، يساهم بشكل فعال ، في إنضاج الحياة الثقافية ، ويبعدها عن حالات الجفاء والتباعد ، والقطيعة التي تعمل المنازعات والمنافسات السيئة .

إن السيرة الفكرية ، لأي مفكر ، هي عبارة عن عدة تحولات ، وتفاعلات مختلفة ، بحيث إنه نستطيع القول : أنه وليد التفاعل مع مختلف المدارس الثقافية والسياسية والفلسفية المتوفرة في الواقع العربي ، كشف وبيان هذه المسألة يؤدي في تقديـــــــــــرنا إلى إغناء الحالة الحوارية في الحياة العربية .

وهذا مما يجعل سيرة المفكر الفكرية والثقافية ، رافداً من روافد تعزيز وإثراء الحياة الثقافية العربية .

وبهذا تكون السيرة الفكرية ، مساحة للتفكير والتأمل ، وحقلا من حقول البحث عن الخيارات المناسبة لفضائنا المعرفي والثقافي . وصراحة المفكر في سيرته ، ليست عيباً أو نقصاً ، وإنما هي إمكان وقوة .